جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

(القصدية التداولية في قصة قوم سبأ)

إعداد

د/ مناء راجح سعد الغامدي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد –
كلية الآداب والفنون - جامعة بيشة

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠أكتوبر)
(الجزء الثاني (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

(القصدية التداولية في قصة قوم سبأ)

مناء راجح سعد الغامدي

قسم البلاغة والنقد، كلية الآداب والفنون، جامعة بيشة، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: Manaragh12@gmail.com

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى رصد تجليات القصدية التداولية في قصة قوم سبأ الواردة في سورة سبأ، وعلاقتها بالقصدية العامة للسورة، وإبراز دورها في نجاح العملية التواصلية، وذلك من خلال عدد من الوسائل اللغوية والبلاغية، مستعينا بالمنهج التداولي في تحقيق ذلك، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم إلى مقدمة، ومبحثين تناول المبحث الأول الجانب النظري للدراسة، بينما تناول المبحث الثاني الجانب التطبيقي، ثم خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، والتي كان من أبرزها: تمثلت القصدية في القصة في أن العذاب قد نزل بمن كان ذنبه أصغر من ذنوب كفار مكة، فإذا كان قوم سبأ قد استحقوا العذاب بسبب كفرهم بنعمة الله، فكيف بمن يكفر بالله ونبيه واليوم الآخر؟! اتكأت القصة في تحقيق قصديتها على اللغة بوصفها الوعاء الناقل لمقاصد الخطاب إلى المتلقين، وكان أبرز أدواتها: الاستثناء، والتكرار، والتوكيد، حيث كانت هذه الأدوات سمة بارزة في تشكيل النص.

الكلمات المفتاحية قوم سبأ، القصدية التداولية، سورة سبأ، العملية التواصلية، الخطاب.

The Pragmatic Intention in the story of the people of Shaba

Mina Rajeh Saad Al-Ghamdi
Department of Rhetoric and Criticism, College of Arts and Letters, University of Bisha, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: *Manaragh12@gmail.com*

Abstract

This research tends to monitor the manifestations of pragmatic intention in the story of the people of Shaba mentioned in Surah of Shaba, its relationship to the general intent of the surah, and to highlight its role in the success of the communication process, through a number of linguistic and rhetorical means, using the deliberative approach based on the nature of the research. The study is divided into an introduction, and two sections; while the first deals with the theoretical aspect of the study, the second section deals with the applied side. Then a conclusion that includes the most important results reached by the research, which was the most prominent: the intention was to the story that the torment was revealed to those whose guilt was smaller than the sins of infidels Makkah, if the people of Shaba deserved torture because of their disbelief in the grace of God, then how can those who disbelieve in God and his Prophet and the Last Day?! The story relies on achieving its intention to language as the vessel transmitted to the purposes of the discourse to the recipients, and its most prominent tools were: exception, repetition, and affirmation, as these tools were a prominent feature of the formation of the text.

Keywords: ***Shaba, The Intent Pragmatics, Surat Shaba, The Communication Process, The Speech***

المقدمة:

الحمد لله ،والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فإن اللغة هي مما يتميز به الإنسان عن سائر الحيوانات، وقد وجدت اللغة لغرض التواصل بين بني الإنسان، كون الإنسان اجتماعيا بطبعه، ولا يستطيع الاستغناء عن غيره، ومن ثم فإن حاجته إلى اللغة كانت ماسة، وملحة، وضرورة من ضرورات الحياة، وإذا كانت هذه هي العلاقة بين الإنسان واللغة، فهذا يعني أن مجرد التكلم بالألفاظ والجمل لا يعني أن تكون اللغة قد استوفت شروطها لتؤدي الغرض منها، إذ لا بد من وجود القصدية فيها، وهذا يعني أن الكلام بدون قصد لا يكون ذا قيمة ؛ذلك أن أساس عملية التواصل هو القصد، فالإنسان حين يكتب أو يتكلم فإنما يكون دافعه القصد، وحينما يدافع عن نفسه أو يشكو مما يعانيه إلى غيره، فإنما يفعل ذلك عن وعي وقصد(.[١]

كما أن مجرد تعبير الإنسان عن أي شيء في نفسه، أو نقل معلومات ما إلى غيره، أو غير ذلك، يعد فعلا قصديا، فالأصل في الكلام هو القصد، والقصد في الكلام هو الذي يمنح استلزاماته الصبغة السياقية أو المقامية(٢). وبناء على هذا فقد سعى هذا البحث إلى الكشف عن القصدية في قصة قرآنية، هي قصة قوم سبأ، مستعينا بالمنهج التداولي.

---

[١] ينظر: القصدية ودورها في تحقيق التماسك النصي في سورة الضحى، عبد الرحمن ربيع سيد محمد، بحث منشور في مجلة فيلولوجي، العدد ٧٨، ٢٠٢٢: ١٢.

[٢] ينظر: اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨: ١٠٣.

أما الدراسات السابقة فقد وجدت الباحثة أن هناك دراسات عديدة، تناولت القصدية في سورة قرآنية ،أو مجموعة من الآيات القرآنية ذات موضوع واحد، أو قصصا معينة، ولكن تلك الدراسات جميعا لم تتناول القصدية في قصة قوم سبأ الواردة في سورة سبأ –على حد علم الباحثة – وقد أفاد البحث في الجانب النظري من بعض الدراسات ،منها:

- القصدية ودورها في تحقيق التماسك النصي في سورة الضحى، عبد الرحمن ربيع سيد محمد، بحث منشور في مجلة فيلولوجي، العدد ٧٨، ٢٠٢٢م.
- أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ: دراسة نحوية دلالية، عامر فائل محمد بلحاف، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد١٦، ٢٠١٦م.
- القصدية في سورة التكاثر، حكيم موحان الموسوي، بحث منشور في مجلة آداب ذي قار، العراق، محور الدراسات العربية، العدد٢١، القسم الثاني، ٢٠١٧م.
- القصدية في أخبار خلفاء ووزراء العصر العباسي – دراسة تداولية، بدرية بنت محمد الجعيد، ود. حسين بن محمد القرني، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، اليمن، مج٥، ع٢، ٢٠٢٣م.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مقدمة ومبحثين، وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع، ويمكن عرض ذلك على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها: أهمية البحث، وأهدافه، وخطته، والمنهج المتبع، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: الجانب النظري.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي.

الخاتمة، وتضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث. وأخيرًا، قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: الجانب النظري:

القصدية في اللغة:

ارتبطت دلالة (القصد) بدلالة (المعنى) في المعاجم العربية ارتباطًا وثيقًا، فقد ورد الفعل (قصد) مرادفًا للفعل (عنى) فيها، ومن ذلك تفسير العسكري للأول بالثاني، أي أنه مرادفه، حين فرق بين الحقيقة والمعنى بقوله: إن "الْمَعْنى هُوَ الْقَصْد الَّذِي يَقع بِهِ القَوْل على وَجه دون وَجه، وَقد يكون معنى الْكَلَام فِي اللُّغَة ما تعلق بِهِ الْقَصْد"([1])، وقد احتج لذلك بقول الفارسي: "ولهذا قال أبو علي رحمة الله عليه: إن الْمَعْنى هو القصد إِلَى مَا يُقْصد إِلَيْهِ من القَوْل، فَجعل الْمَعْنى الْقَصْد لِأَنَّهُ مصدر. قَالَ: وَلَا يُوصف الله تَعَالَى بِأَنَّهُ معنى؛ لِأَن الْمَعْنى هُوَ قصد قُلُوبنَا إِلَى مَا نقصد إِلَيْهِ من القَوْل، وَالْمَقْصُود هُوَ الْمَعْنى"([2]). وجاء في اللسان: "لَا يُقَالُ عُنِيتُ بِحَاجَتِكَ إِلا عَلَى مَعْنى قصَدْتُها، مِنْ قَوْلِكَ عَنَيْتُ الشَّيْءَ أَعْنِيه إِذا كُنْتَ قاصِداً لَهُ".([3])

فالقصدية مأخوذة من الجذر (قصد)، "الْقَصْدُ: اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقة"([4])، ومنه: "طريقٌ قَاصِدٌ: سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ. وسَفَرٌ قاصدٌ: سَهْلٌ قَرِيبٌ"([5])، و "القَصْدُ: الاعتمادُ والأَمُّ. قَصَدَه يَقْصِدُه قَصْداً وقَصَدَ لَهُ ،وأَقْصَدَني إليه الأَمرُ، وَهُوَ قَصْدُكَ وقَصْدَكَ أَي

---

[1] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت: ٣٣.

[2] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري: ٣٣- ٣٤.

[3] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ: ١٥/ ١٠٥.

[4] العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت: ٥/٥٤.

[5] المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠: ١٨٥/٦.

تُجاهَك...، والقَصْدُ: إتيان الشَّيْءِ. تَقُولُ: قصَدْتُه وقصدْتُ لَهُ وقصدْتُ إليه بِمَعْنًى. وَقَدْ قَصُدْتَ قَصادَةً...، وقَصَدْتُ قَصْدَه: نَحَوْتُ نَحْوَهُ. والقَصْد فِي الشَّيْءِ: خلافُ الإفراطِ وَهُوَ مَا بَيْنَ الإسراف وَالتَّقْتِيرِ. وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ: أَن لَا يُسْرِفَ وَلَا يُقَتِّر. يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْتَصِدٌ فِي النَّفَقَةِ وَقَدِ اقْتَصَدَ. وَاقْتَصَدَ فُلَانٌ فِي أَمره أَي اسْتَقَامَ"(.[1]

وقد أرجع ابن فارس معاني القصد إلى ثلاثة أصول، فقال: " الْقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اكْتِنَازٍ فِي الشَّيْءِ. فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا. وَمِنَ الْبَابِ: أَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إِذَا أَصَابَهُ فَقَتَلَ مَكَانَهُ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَحِدْ عَنْهُ...، وَمِنْهُ: أَقْصَدَتْهُ حَيَّةٌ، إِذَا قَتَلَتْهُ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: قَصَدْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ. وَالْقِصْدَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا تَكَسَّرَ، وَالْجَمْعُ قِصَدٌ. وَمِنْهُ قِصَدُ الرِّمَاحِ. وَرُمْحٌ قَصِدٌ، وَقَدِ انْقَصَدَ...، وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: النَّاقَةُ الْقَصِيدُ: الْمُكْتَنِزَةُ الْمُمْتَلِئَةُ لَحْمًا"(.[2]

القصدية في الاصطلاح:

يعرّفها (سيرل) بأنها: "سمة العقل التي توجّه بها الحالات العقلية أو تتعلق بها حالات عقلية أو تُشير إليها، أو تهدف نحوها في العالم. ومما يميز هذه السّمة؛ أنّ الشيء لا يحتاج أن يوجد فعليًّا لكي تمثّله حالتنا الشعورية"(.[3]

وقد ربط (دي بو جراند) بين القصد والنصية، حين عد القصد معيارًا من معايير النصيّة السبعة، والنصية لا تتحقق إلا من خلال اتسام النص بالاتساق

---

[1] لسان العرب: ٣/٣٥٣- ٣٤٥.

[2] مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، د.ط، ١٩٧٩: ٥/ ٩٥.

[3] العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦م: ١٠٢.

والتماسك، فقد عرّفه بأنه: "يتضمّن موقفَ منشئِ النص من كون صورة ما من صور اللغة؛ قُصد بها أن تكون نصًّا يتمتّع بالسبك والالتحام، وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة؛ للوصول إلى غاية معينة"([1]). أي أنه يجب على منتج النص أن يقدّم للمتلقي نصًّا يتسم بالاتساق والانسجام؛ يُحقّق فيه مقاصده وذلك باختيار الوسائل اللغوية المناسبة(.([2]

من خلال التعريفات السابقة يمكننا استخلاص تعريف شامل للقصد، يتمثل في أن القصد، أو المقصدية هو الهدف الذي يريد المتكلم إيصاله إلى المتلقين، والكامن خلف ستار اللغة، أو ذهن المتكلم، بالاستعانة بالنظر إلى حال المتكلم وسياق التكلم ومناسبته؛ ومن ثم فك رموزه؛ لفهم ذلك القصد، ومعرفة مراد المتكلم.

إن أهمية المقاصد في الخطاب لا تقتصر على الخطاب الأدبي فحسب، ولكنها تتمثل –عند كثير من الباحثين– في كونها تنتظم شتى العلوم التي تتعلق بلغة الخطاب، سواء أكان ذلك في القديم أم في الحديث؛ ذلك أن المقاصد هي لب العملية التواصلية([3])، وهي من القرائن التداولية الأساسية في تحليل الخطاب اللغوي التواصلي، فالقصد هو الهدف الأساسي لاستعمال اللغة في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد، وهو شرط يجب توافره في الملفوظات حتى تحقق معانيها([4]) التي قيلت من أجلها.

---

[1] النص والخطاب والإجراء، روبوت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨: ١٠٣.

[2] ينظر: القصدية في أخبار خلفاء ووزراء العصر العباسي – دراسة تداولية: ٣٤٨.

[3] ينظر: إستراتيجيات الخطاب: ١٨٣.

[4] ينظر: مبدأ القصدية التداولي في خطاب آيات التوحيد في القرآن المجيد، سارة كاظم عبد الرضا، بحث منشور في مجلة فصل الخطاب، الجزائر، المجلد السابع، العدد٢٥، ٢٠١٩: ٥٢.

إن القصدية – بوصفها جوهر العملية التواصلية – لا يمكن أن تتحقق من خلال العلاقة بين الألفاظ ومعانيها المعجمية الموضوعة لها في أصل اللغة، أي: العلاقة بين الدال والمدلول، فقط، ولكنها قد لا تتضح إلا من خلال علاقات أخرى لغوية وغير لغوية، فاللغوية تتمثل في العلاقات القائمة بين الألفاظ ومعانيها من خلال المجاز والكناية والاستعارة، وغير ذلك، وغير اللغوية تتمثل في السياقات المحيطة بالنص، كالسياق والمقام، وحال المتكلم، وحال السامع، وغيره؛ ذلك أن "النظر إلى المعاني الوضعية للألفاظ لا يكفي للدلالة على مقصود المتكلم، بل لا بد مع ذلك من النظر إلى دلالة الألفاظ أثناء استعمالها في سياق الكلام؛ لأن المتكلم قد لا يظهر قصده من ألفاظه، وإنما من سياقه، والسياق من القرائن المهمة على مقاصد المتكلم، فهو يبين المجمل ويخصص العام، ويقيد المطلق، ويعين المحتمل، وربما عبر المتكلم بكلام يُفهم من سياقه أنه لم يرد حقيقته، وإنما أراد لازمه مجازا أو كناية أو تعريضا".([1])

ولأجل هذا فإن على قارئ النص أو متلقيه، أن لا يقتصر فهمه على مدلولات الألفاظ الظاهرة، والعلاقة بينها في تركيب الجمل فحسب، حتى يفهم قصدية الباث أو المتكلم، بل يجب عليه معرفة ذلك بالإضافة إلى مناسبة قول النص، وحال الباث، وغيرها، فالنص "ليس عبارة عن متوالية نصية تحكمها جملة من المعايير التركيبية فحسب، بل هناك أمور أكبر من التركيب، أولها دواعي نشوء تلك النصوص، أو مناسبات إطلاقها، والغاية منها"([2])، وكذا حال المتلقين، ونوعية الخطاب.

---

[1] القصدية في الدرس البلاغي للنظم القرآني، يوسف بن عبدالله العليوي، بحث منشور في مجلة العلوم العربية، العدد التاسع والثلاثون، ١٤٣٧هـ: ١٢٧.

[2] القصدية في سورة التكاثر، حكيم موحان الموسوي، بحث منشور في مجلة آداب ذي قار، العراق، محور الدراسات العربية، العدد٢١، القسم الثاني، ٢٠١٧ : ١٠٠.

ومن ثم فإن الخطاب عامة، والخطاب القرآني خاصة، لا يمكن فهمه مباشرة من خلال مدلولات الألفاظ المكونة له والعلاقات القائمة بينها، إذ إنه يحمل في طياته مقاصد أخرى لا يمكن فهمها إلا بالنظر فيما يحمله النص من علاقات. ونتيجة لخفاء القصدية في كثير من النصوص، ومنها نصوص القرآن الكريم، فإن كلا منها قد فُسِّرَ تفسيرات عدة، وأُوِّلَ تأويلات مختلفة ومتباينة؛ ناتجة عن تباين حال المتلقين لتلك النصوص.

وهذا يعني "أن تحقّق القصدية يظهر في أشكال مختلفة، وعلى المتلقي فهم تلك الطرق التي تُمكّنه من الكشف عن القصدية؛ ومن ثم يتفاعل المتلقي مع النص. وهذا التفاعل دليل نجاح العملية التواصلية بين المُتكلِّم والمتلقي.([1])"

ولهذا فإن الناس، عندما لا يتضح لهم قصد المتكلم، يثيرون في تبادلاتهم التخاطبية السؤال التالي: ماذا تقصد بخطابك؟ أو ماذا يعني كلامك؟ "وتجنبا لهذا السؤال المفترض، يعمد طرفا الخطاب إلى تحديد المقاصد من الألفاظ والمفاهيم والعبارات مسبقا، خصوصا عند سن القوانين أو الأنظمة، وكذلك في النقاشات والحجاج، وذلك لينطلقوا من قاعدة واحدة، فتكون مرجعا لهم عند الاختلاف".([2])

القصدية في التراث العربي:

لقد كان لقدماء اللغويين العرب، ولا سيما علماء البلاغة، إسهام بارز في ربط القول بالقصدية، فنجد أقوالا صريحة في ذلك، من ذلك قول أبي هلال: "وَالْغَرَض هُوَ

---

[1] القصدية في أخبار خلفاء ووزراء العصر العباسي – دراسة تداولية، بدرية بنت محمد الجعيد، ود. حسين بن محمد القرني، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، اليمن، مج٥، ع٢، ٢٠٢٣: ٣٤٨.

[2] إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤: ١٨٤.

الْمَقْصُود بالْقَوْل ...، وَسمي غَرضا تَشْبِيها بالغرض الَّذِي يَقْصِدهُ الرَّامِي بسهمه، وَهُوَ الهدف"([1])، وكذا قول حازم القرطاجني: "وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم في جميع جهاته. فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد"([2])؛ فإن المعنى فيها جميعا مرتبط بقصد المتكلم.

أما الجاحظ فإنه لم يذكر القصد صراحة باسمه، وإنما ذكره بمرادفه (البيان)، ولكنه أشار إلى وظيفته بمعناها المعروف اليوم، وهي فهم مغزى الكلام، ليس من ظاهر القول فقط، وإنما من خلال البحث عنه خلف تلك الألفاظ، حيث يقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".([3])

وبناء على ما سبق فإنه يمكننا القول إن استعمال مصطلح (القصد) لدى علماء العربية القدامى يأتي للدلالة على المراد من القول/ الخطاب/ النص، وقد أشاروا إليه بعدد من الألفاظ المرادفة، منها: المعنى، والغرض، والهدف، والحاجة،

---

[1] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري: ٣٥.

[2] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦: ٣١٠.

[3] البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، ١٤٢٣هـ: ١/ ٨٢.

والغاية([1])، التي يريد الباث إيصالها إلى المتلقي، أما غايته التي يسعى إليها فهي الفهم والإفهام.

أما علماء الأصول – أعني أصول الفقه – فقد اهتدوا إلى الاستلزامات المستندة إلى الدلالة المقامية أو السياقية، عن طريق تقسيمهم لطرق دلالة اللفظ على المعنى، وهو تقسيم ينضبط بـ (مبدأ القصدية)، ومقتضى هذا المبدأ أنه لا كلام إلا مع وجود القصد، وصيغته هي: "الأصل في الكلام القصد"، ومن المعلوم أن القصد من الكلام هو الذي يورث استلزاماته الصبغة السياقية أو المقامية التي تحتاج في استخراجها إلى افتراض أن القائل يتبع قواعد التخاطب المشتركة([2])، بينه وبين المتلقين/ السامعين.

فنجدهم يقسمون المنطوق إلى قسمين: الأول منطوق صريح، وهو: ما وضع اللفظ له في الأصل، فيدل اللفظ عليه بالمطابقة أو التضمن، وهذا القسم يسمى "عبارة النص"، أو دلالة العبارة، ويقصدون بها: دلالة اللفظ على المعنى المقصود منه الذي سيق له، أما الثاني فهو منطوق غير صريح، وهو: ما لم يوضع اللفظ له في الأصل، بل يلزم مما وضع له، وهذا يعني أن المنطوق غير الصريح هو: دلالة اللفظ على الحكم بطريق الالتزام؛ إذ إن اللفظ مستلزم لذلك المعنى والحكم، فاللفظ لم يوضع للحكم في الأصل، ولكن الحكم فيه لازم للمعنى الذي وضع له ذلك اللفظ، أي أنه غير مقصود، والالتزام معتبر في المنطوق غير الصريح([3])، وهذا يعني أن الكلام

---

[1] ينظر: المقصدية التداولية في سورة الزمر، شةيدا خضر كريم، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الإسلامية، ملحق العدد ٥٨، ٢٠١٩: ٢٥.

[2] ينظر: اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي: ١٠٣.

[3] ينظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩: ٤/ ١٧٢٢-١٧٢٣.

قد يدل على المعنى صراحة، وقد يدل عليه عن طريق الاستلزام، ولكن القصدية فيهما هي أصل وضع الكلام.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي:

نص القصة كما وردت في سورة سبأ:

"لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)". [سورة سبأ].

مقاصد السورة:

سورة سبأ سورة مكية، وبما أنها مكية النزول فإنها ستتناول أمور العقيدة، وتوحيد الله عز وجل؛ وقد نزلت للرد على كفار مكة إنكارهم البعث والنشور، فقد ذكر أبو حيان أن "سَبَبَ نُزُولِهَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، لَمَّا سَمِعُوا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَتَوَعَّدُنَا بِالْعَذَابِ بَعْدَ أَنْ نَمُوتَ، وَيُخَوِّفُنَا بِالْبَعْثِ، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ أَبَدًا، وَلَا نُبْعَثُ. فَقَالَ اللَّهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ وَبَاقِي السُّورَةِ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَتَخْوِيفٌ"(.([1]

[1] البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ : ٨/ ٥١٧-٨١٨.

مما سبق يمكننا القول : إن الرد على كفار مكة بشأن إنكارهم البعث ،وتكذيبهم بالساعة هو سبب نزول هذه السورة، وهو – أيضا – أحد مقاصدها، وهذا يعني أن هناك مقاصد أو أغراضا أخرى تهدف السورة إلى تحقيقها.

إن تلك المقاصد لن تكون إلا دائرة في فلك المقصد الأساسي للسورة، وداعمة له، وهو توحيد الله عز وجل، فقد ذكر ابن عاشور: أن من مقاصد هذه السورة: "إِبْطَالُ قَوَاعِدِ الشِّرْكِ وَأَعْظَمُهَا إِشْرَاكُهُمْ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ وَإِنْكَارُ الْبَعْثِ...، وَإِثْبَاتُ إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَمَا يُخْبِرُ بِهِ فَهُوَ وَاقِعٌ، وَمِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ. وَإِثْبَاتُ صِدْقِ النَّبِيءِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَصِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَأَن الْقُرْآن شهد بِهِ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ"(.([1]

وهذا يعني أن مقاصد السورة الأساسية تتمثل في الآتي(:([2]

- إبطال قواعد الكفر والشرك.

- إثبات إحاطة علم الله –عز وجل- بكل ما في السماوات والأرض، ومن ذلك البعث والجزاء.

- إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

- إثبات صدق ما جاء به القرآن الكريم.

ولغرض تحقيق هذه المقاصد الأساسية فقد تضمنت السورة قصصا لبعض الأمم السابقة من الذين شكروا أنعم الله، ففازوا بخيري الدنيا والآخرة، والذين كفروا بها، فكان عاقبتهم الخسران في الدنيا والآخرة، وكان الغرض من ذلك: " تَهْدِيد

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، ١٩٨٤: ٢٢/١٣٤.

[2] ينظر: أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ: دراسة نحوية دلالية، عامر فائل محمد بلحاف، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد١٦، ٢٠١٦: ١٧-١٨.

الْمُشْرِكِينَ وَمَوْعِظَتِهِمْ بِمَا حَلَّ بِبَعْضِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَبْلُ. وَعُرِّضَ بِأَنَّ جَعْلَهُمْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ كُفْرَانٌ لِنِعْمَةِ الْخَالِقِ؛ فَضَرَبَ لَهُمْ الْمَثَلَ بِمَنْ شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ وَاتَّقَوْهُ فَأُوتُوا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسُخِّرَتْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ مِثْلُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَبِمَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ فَسُلِّطَتْ عَلَيْهِ الْأَرْزَاءُ فِي الدُّنْيَا، وَأُعِدَّ لَهُمُ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ مَثَلُ سَبَأٍ"([1]). وهذا يعني أن قصة قوم سبأ قد أدت دورًا محوريًّا في تحقيق مقصدية السورة بشكل عام، ولهذا، فإنه يمكننا دراسة القصدية في قصة قوم سبأ على النحو الآتي:

القصد الرئيسي وشبكة العلاقات النصية في القصة:

من خلال الآيات الكريمة يمكن تقسيم القصة إلى ثلاث مجموعات، للتعرف على العلاقات النصية التي تربط بين القصد الرئيسي للقصة وقصد كل مجموعة، كما يأتي:

المجموعة الأولى:

من الآية ١٥-١٧، وتتحدث هذه الآيات عن قوم سبأ ،وما كانوا فيه من نعيم، وكفرهم بنعم الله، ثم استحقاقهم العذاب على ذلك.

المجموعة الثانية:

من الآية ١٨- ١٩، وتتحدث هاتان الآيتان عن قصة أخرى لقوم سبأ، حيث كانوا ينعمون بالأمن عند السفر إلى الشام، بسبب قرب القرى بعضها من بعض على طول الطريق، ثم بطرهم بتلك النعمة بأن دعوا الله أن يباعد بين أسفارهم، ثم استجابة الله لهم، فشتت شملهم، وباعد بين أسفارهم، ومزقهم كل ممزق، فأصبحوا

[1] التحرير والتنوير: ٢٢/١٣٤-١٣٥.

مضرب المثل في ذلك حتى قيل في المثل: (ذهبوا أيدي سبا، وتفرقوا أيدي سبا)([1])، ومعناه: تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه.

المجموعة الثالثة:

من الآية: ٢٠ – ٢١، وتتحدث هاتان الآيتان عن سبب كفرهم بنعم الله، وعصيانهم له، وهو أنهم اتبعوا إبليس الذي صدق عليهم ظنه، بإضلالهم وإغوائهم، كما بيّنتا القصد من تسلط إبليس عليهم، رغم ضعفه أمام قدرة الله، حيث إن الغرض من ذلك هو تمحيصهم ،ومعرفة من يؤمن بالآخرة ممن هو كافر بها.

لقد كان تهديد مشركي مكة الذين جعلوا لله أندادًا ،وتحذيرهم من تبعات شركهم بالله، ووعيدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا به، هو القصد الرئيسي للقصة، من خلال ضرب المثل لهم بقصة قوم سبأ الذين جحدوا نعمة الله، وكفروا بها، فأخذهم الله أخذًا شديدًا، فخسروا الدنيا والآخرة، ويمكن توضيح دور القصدية في القصة في تدعيم قصدية السورة بشكل عام من خلال الوسائل الآتية:

أولا: الأساليب البلاغية:

تؤدي الأساليب البلاغة دورًا مهمًّا في تحقيق القصدية في الكلام، حيث إنها تعتمد على مخاطبة البلغاء ممن يدركون المعاني العميقة المستترة خلف البنية السطحية للألفاظ، وتهدف إلى توجيه الكلام نحو مقاصده الحقيقية ،التي قيل من أجلها.

ومن الأساليب البلاغية الواردة في القصة:

الأول: أسلوب الاستفهام:

---

[1] ينظر: مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت: ١/٢٧٥.

وهو استفهام خرج عن حقيقته، المتمثلة في طلب الفهم أو الاستخبار عن شيء لم يكن لك علم به([1])، إلى معنى بلاغي آخر هو النفي، ويمكن أن يفهم ذلك من خلال السياق وقرائن الأحوال، وقد ذكرت بعض الدراسات الحديثة أن جميع الاستفهامات الواردة في سورة سبأ قد خرجت عن معانيها الحقيقية إلى أغراض بلاغية تُفهم من سياق الآيات وقرائن الأحوال(.[2])

ويتمثل ذلك في قوله تعالى: (وهل نجازي إلا الكفور)، حيث إن معنى الآية: ولا نجازي إلا الكفور، أي أن المؤمن تُكفر عنه ذنوبه بطاعاته، والكافر يجازى بكل سوء يعمله([3])، فمهما قدم من عمل صالح فإنه يحبط.

قال الطبري: "فلذلك قال جل ثناؤه في هذا الموضع (وَهَلْ يُجَازَى إِلا الْكَفُورُ) ؟ كأنه قال جل ثناؤه: لا يجازى: لا يكافأ على عمله إلا الكفور، إذا كانت المكافأة مثل المكافَأ عليه، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئًا، ولا يمحص شيء منها في الدنيا، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه"(.[4])

إن الطريقة غير المباشرة التي ورد بها الاستفهام – حين خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي آخر – هو النفي، وهي طريقة تشير إلى أن القصد من

---

[1] ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥: ١/ ١٧. ومعترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨: ٣٣٤/١.

[2] ينظر: سورة سبأ دراسة نحوية دلالية، فاطمة عطية شبانة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، فلسطين، ٢٠١٥: ١٠٥.

[3] ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن النيسابوري، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٤: ٨٦/٣.

[4] ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠: ٣٨٤/٢٠.

ورود قصة قوم سبأ ليس للعلم بها فقط، ولكنها خرجت عن ذلك إلى قصد آخر هو التهديد الضمني لكفار مكة بوقوع العذاب عليهم، إن استمروا على كفرهم وعنادهم، ومن ثم ،فإن القصد من ذلك هو إشعارهم بأن العذاب هو مصير كل كافر، أيًّا كان زمانه أو مكانه، وهو ما يحقق مقصدية السورة ويعضدها.

الثاني: التلميح:

إن القصدية – بوصفها أصل كل خطاب– لا تتحقق إلا من خلال الاستعانة بعدد من العناصر التي تعد اللغة أهمها وأبرزها، كونها "الوسيلة الاتصالية الأيسر والأكثر إيفاء بتحقق الغاية أو المقصد، ولما كان المتكلم عارفا لحقيقة التواصل وطرق تحقق القصد، فهو يجنح نحو اختيار العناصر المؤدية لذلك، مستعينا بإمكانيات اللغة، بما تنتجه من استعارات، ومجازات"([1])، وكنايات، وتلميحات، وغيرها، مما يحقق مقصدية الخطاب.

ويتمثل التلميح في القصة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظ)، إذ ليس المقصود بالذين صدق عليهم إبليس ظنه قوم سبأ فقط، كما يتبادر إلى الذهن أول مرة، ولكن المقصود بهم قوم سبأ، وغيرهم ممن اتبع سبيل الشيطان، وكفر بالله، وهو ما ذهب إليه عدد من المفسرين.

قال الزمخشري في تفسير ذلك: "والضمير في (عَلَيْهِمْ) و(فَاتَّبَعُوهُ) إمّا لأهل سبأ، أو لبني آدم"([2]). وهذا يقتضي أن كفار قريش داخلون في هذا الحكم؛ لأنهم

---

[1] القصدية في سورة التكاثر، حكيم موحان الموسوي: ١١٤.

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ : ٣/ ٥٧٩.

جزء من بني آدم، وفي هذا تلميح وإشارة إليهم بأنهم ممن اتبع الشيطان، وخضع له ولوساوسه، فاستحقوا بذلك العذاب في الدنيا والآخرة.

ويترتب على هذا القول أنهم لما أطاعوا إبليس واتبعوه، رغم أنه ليس له سلطان عليهم، أنهم من الفريق الثاني، وهو الفريق الذي لا يؤمن بيوم القيامة، فهو في شك من الآخرة والبعث والحساب، والجنة والنار، وهو ما ينطبق تماما على كفار مكة. وبناء على هذا فإن التلميح والإيماء إليهم قد حقق القصدية التي تسعى القصة إلى تحقيقها، وهي تحذير كفار قريش من مغبة الاستمرار في كفرهم وطغيانهم؛ لأن مصيرهم سيكون كمصير قوم سبأ، بل أشد، وهذا يتطابق مع قصدية السورة التي تتمثل في توحيد الله عز وجل، وعدم الكفر به.

ثانيا: الأدوات اللغوية/النحوية:

يعتمد المتكلم في إيصال مراده إلى المتلقي على اللغة، وهذه اللغة ليست إلا مجموعة من الوسائل والأدوات ،التي تتضافر فيما بينها لتحقيق قصدية الخطاب، ولما كان لكل أداة أو سيلة طبيعتها الخاصة بها، فإن المتكلم يحاول ربط المتلقي بقصده هو، من خلال استعمال بعض التراكيب والمفردات، والأدوات والأساليب التي تحفر في ذاكرة المخاطَب ومخزونه اللغوي والثقافي والاجتماعي[1]، بما يحقق القصدية التي يحملها الخطاب.

يقول فان دايك: "حالما تترسخ السيطرة على مؤشرات السياق وإنتاج الخطاب، يمكننا أن نستقصي كيف يتم التحكم ببنى الخطاب نفسه، ما الذي يمكن أن ينبغي أن يقال (من الكلي إلى الجزئي) كيف يمكن صوغه؟ باي الكلمات أكثر تفصيلا ودقة أو أقلهما".[2]

---

[1] ينظر: القصدية في سورة التكاثر: ١١٥.

[2] الخطاب والسلطة، فان دايك، ترجمة: غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٤: ٤٧.

ومن الأدوات اللغوية التي عملت على تحقيق القصدية في القصة ما يأتي:

الأول: الاستثناء:

ورد الاستثناء بـ (إلا): في قصة قوم سبأ في قوله تعالى: (وهل نجازي إلا الكفور)، وبالنظر في الآية يتبين أن الاستثناء استثناء مفرغ –أي أن المستثنى منه محذوف– وقد سُبق باستفهام إنكاري يحمل معنى النفي، فكأن معناها: (وما نجازي إلا الكفور)، فإذا كان معنى التفريغ في الاستثناء هو "كون ما قبل (إلا) طالبا لما وقع بعدها طلبا لا يفتقر إلى (إلا) من حيث التركيب، فلا يتم الكلام من حيث القصد إلا به"([1])، تبين لنا أن (لا) قد حصرت معنى المجازاة في الكفور، أيًّا كان معناها([2])، أو زمانها أو مكانها.

ذلك أن (إلا) في الاستثناء المفرغ، لم تعد أداة استثناء، وإنما أصبحت أداة حصر، حيث حصرت الحكم فيما بعدها، أي أنها حصرت المجازاة في الكفور، ولما كان الكفر هو القاسم المشترك بين قوم سبأ وكفار قريش، فإن المجازاة/ العقوبة حالَّةٌ بهم لا محالة، كما حلت بسابقيهم، وهذا هو القصد الذي تحمله القصة.

ومن هنا يتبين أن الاستثناء قد عمل على تحقيق القصدية العامة للسورة ،من خلال تحقيقه لقصدية القصة.

كما ورد الاستثناء بـ(إلا) – أيضًا – في قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠))، وهو استثناء يحتمل الاتصال والانقطاع، تبعا لاختلاف تفسير الآية، فإن كان الضمير في (اتبعوه) عائدًا على المشركين ؛فهو استثناء متصل تام موجب، وإن كان الضمير عائدا على قوم سبأ ؛فهو يحتمل

---

[1] المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، إبراهيم الشاطبي، تحقيق: عياد بن عيد الثبيتي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٧: ٣/ ٣٧٥.

[2] ينظر: أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق المقاصد في سورة سبأ: ٢٠.

الاتصال ،إن كان فيهم مؤمنين، وإلا فهو استثناء منقطع، وبناء على هذا يكون المعنى: لم يعصِ إبليسَ في ذلك إلا فريقٌ من المؤمنين، وهم الذين آمنوا من كفار مكة، أو من قوم سبأ؛ إذ يُحتمل أن يكون منهم فريق مؤمن نجا قبل تعذيبهم بسيل العرم(.)[١]

وبإخراج المؤمنين من الوقوع تحت سلطة إبليس، واتّباعه، عن طريق الاستثناء بـ (إلا) تتحقق مقصدية القصة، التي تتمحور حول تحذير مشركي مكة من اتباع إبليس؛ ذلك أن استثناء المؤمنين يقتضي بالضرورة أن ما عداهم، أي كفار قريش، داخل في الحكم، وهو اتباع إبليس، ومن ثم فإنهم يستحقون العقوبة كما استحقها قوم سبأ قبلهم.

كما جاء الاستثناء في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١))، وهو استثناء مفرغ أيضًا، يسعى مع الاستثناء السابق إلى تحقيق مقصدية واحدة، وهي أن الشيطان ليس له سلطة إلا على الكافرين، أما المؤمنين فلا، وتركزت دلالة الاستثناء – هنا – على أن سلطان إبليس على الكافرين ليس عبثًا، إنما كان اختبارًا لهم، وإسقاطًا لحججهم؛ لكي يُعرف الكافر بالآخرة وما يتعلق به من بعث ونشور وحساب وجنة ونار، من المؤمن بها.

كما أن في ذلك –والله أعلم– رحمةً بهم، إذ إن اختبارهم بتسليط الشيطان عليهم –رغم كفرهم– يعد فرصة ثمينة لهم، لمراجعة مواقفهم تجاه الإيمان بالله ورسوله، والدار الآخرة. وبذلك فإن الاستثناء قد شكّل وسيلة فعالة في تحقيق المقصدية في القصة بشكل خاص، والسورة بشكل عام.

---

[١] ينظر: أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق المقاصد في سورة سبأ: ٢١– ٢٢.

الثاني: التوكيد:

يعد التوكيد من أهم الوسائل النحوية والبلاغية ،التي يستعملها المتكلم لتأكيد صحة ما يقوله، وبالنظر في حالة المتلقي تتعدد صور التوكيد، فإذا كان المتلقي شاكًّا مترددًا فيما يقوله المتكلم، كان التوكيد بمؤكد واحد كافيًا، أما إذا كان منكرًا جاحدًا وجب تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد.

قال القزويني: فـ"إذا كان غرض المخبر بخبره إفادة المخاطب أحد الأمرين، فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة:

فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم –بأحد طرفي الخبر على الآخر– والتردد فيه، استغنى عن مؤكدات الحكم، كقولك: جاء زيد، وعمرو ذاهب، فيتمكن في ذهنه، لمصادفته إياه خاليًا. وإن كان متصورًا لطرفية، مترددًا في إسناد أحدهما إلى الآخر، طالبًا له، حسن تقويته بمؤكد، كقولك: لَزيد عارف، أو إنَّ زيدًا عارف. وإن كان حاكمًا بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار، فتقول: "إني صادق" لمن ينكر صدقك، ولا يبالغ في إنكاره، "وإني لصادق" لمن يبالغ في إنكاره".([1])

ذلك أن الغرض الأول من الكلام هو الإفادة، أما الثاني فهو تحسين الإفادة، ثم إن التحسين تارةً يكون بالتوكيد –الذي هو المقصود هنا–، وتارةً يكون بالحذْف، وتارةً يكون بوزن اللفظ، وأخرى بتعديل الوزن، وثالثة بتسهيل المطالع، وبتبديل المقاطع، وغير ذلك، وقد اشتمل القرآن على هذا كله، وعلى أساليب أُخرى لم تكن في عادة العرب فاشية ولا كثيرة، ولكنها كانت كالشيء البديع(.([2])

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ، بيروت، ط٣، د.ت: ٦٩/١-٧٠.

[2] ينظر: أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق، د.ت، ١٩٩٢: ٤٤٨/١.

وبالتأمل في سياق قصة قوم سبأ نجد أن القرآن الكريم ضربها مثلا لكفار مكة ،حين كفروا بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر، تهديدًا وتحذيرًا لهم، من أن يكون مصيرهم مصير قوم سبأ حين كفروا بنعمة الله ولم يشكروها، ولا شك أن الكافر بالله، المنكر للبعث والجزاء والجنة والنار، سيكون أشد كفرًا بما حدث للأمم السابقة، وأكثر إنكارًا لما حلَّ بهم من عذاب وعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، ومن ثم ،فإن توكيد القصة بعدد من المؤكدات بات أمرًا ضروريًّا؛ عسى أن يصدقوا ذلك، ويؤمنوا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن المؤكدات الواردة في القصة ما يأتي:

١- لقد: من المعلوم أن كفار مكة لم يكونوا خالي الذهن ولا شاكّين مترددين حين نزلت عليهم هذه السورة، بل إنكم كانوا منكرين جاحدين، ومن ثم كان لا بد من افتتاح القصة بما يتناسب مع حجم إنكارهم وجحودهم لها، فافتتحت بمؤكدين اثنين متلازمين، هما: اللام و(قد)؛ لتُدفع حجتهم بعد ذلك، وللرغبة في أن يؤمنوا بما جاء به القرآن الكريم، فاللام هي الواقعة في جواب القسم، والقسم يعد من أبلغ المؤكدات وأقواها، و(قد) حرف تحقيق إذا دخلت على الماضي، وهي هنا كذلك، قال ابن عاشور: "وَالتَّأْكِيدُ بِلَامِ الْقَسَمِ وَحَرْفِ التَّحْقِيقِ؛ لِتَنْزِيلِ الْمُخَاطَبِينَ بِالتَّعْرِيضِ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَتَرَدَّدُ فِي ذَلِكَ لِعَدَمِ اتِّعَاظِهِمْ بِحَالِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ بِلَادِهِمْ"([1])، ولو كان كفار قريش مصدقين بذلك لما أتى بهذين المؤكدين.

٢- التكرار: يعد التكرار وسيلة من وسائل التوكيد اللغوية، فتكرار كلمة أو عبارة أو جملة في الخطاب، يؤكد أهميتها لدى المتكلم، وأنها أمر محوري في الكلام، كما أن التكرار يأتي للفت انتباه المتلقي إلى ذلك المكرر.

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٢/١٦٥.

ومن التكرار في القصة تكرار "المجازاة والكفر" في قوله تعالى: "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور"، وكذلك تكرار لفظتي: "السير" و"سيروا"، و"مزقناهم "كل ممزق". ففي الفقرة الأولى تكرر (المجازاة والكفر)؛ وذلك لأنهما محور القصة، وعليهما مدارها، وأنهما مترابطان ترابط النتيجة بالسبب، وفي ذلك تنبيه لهم بأن المجازاة بالعذاب هي عاقبة الكفر. وفي الفقرة الثانية تكرر لفظ (السير)؛ وفيه إشارة إلى حجم النعمة التي بطروها، وكفروا بها، فقد كان فعل الأمر (سيروا) مؤكدا للاسم (السير)، ومبينا كيفيته، وهو السير الآمن على مر الليالي والأيام.

وفي الفقرة الثالثة تكررت لفظة (التمزيق) حيث أُكّد الفعل (مزقناهم) بالمفعول المطلق (كل ممزق)، لبيان شدة العذاب الذي حل بهم، فكلمة (كل) تفيد الشمول، واستغراق جميع أفراد ما بعدها، أي آن الله مزق قوم سبأ تمزيقًا لا اجتماع بعده، وهو ما كان، حتى ضرب بهم المثل: "تفرقوا أيدي سبأ".

٣- (إنّ) واللام المزحلقة الواقعة في خبرها: مثلما افتُتحت القصة بالتوكيد باللام و(قد)، فقد ناسب ذلك أن تُختتم بالتوكيد أيضًا، وكان التوكيد هنا هو (إنَّ) واللام المحلقة، وقد جيء بهما للتأكيد على أن الهدف من إيراد القصة هو الاعتبار والاتعاظ بمصير الكفار من الأمم السابقة.

وفي ذلك يقول ابن عاشور: "وَجُمْلَةُ "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ" تَذْيِيلٌ، فَلِذَلِكَ قُطِعَتْ، وَافْتِتَاحُهَا بِأَدَاةِ التوكيد للاهتمام بالْخبر. وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ هُوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: "لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مساكنهم آيَةٌ". وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذَا التَّذْيِيلَ تَنْهِيَةٌ لِلْقِصَّةِ وَأَنَّ مَا بَعْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مُتَعَلِّقٌ بِالْغَرَضِ الْأَوَّلِ الْمُتَعَلِّقِ بِأَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنْتَقَلِ مِنْهُ إِلَى الْعِبْرَةِ بِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَالْمُمَثَّلِ لِحَالِ الْمُشْرِكِينَ فِيهِ بِحَالِ أَهْلِ سَبَأٍ"(.[1]

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٢/١٨٠.

نخلص مما سبق إلى أن التوكيد قد أدى دورًا رئيسًا ومحوريًّا في تحقيق القصدية في القصة، وهي قصدية تتقاطع مع قصدية السورة بشكل عام، كما أن توكيد القصة بأكثر من مؤكد، وتنوع تلك المؤكدات قد أبرز القصدية أكثر، حيث ارتبط تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد بالجحود والإنكار، وهو حال الكفار، وموقفهم مما جاء به القرآن الكريم والنبي – صلى الله عليه وسلم– وبهذا، فإن تلك المؤكدات قد تضافرت وتآزرت فيما بينها لتحقيق قصدية القصة.

الخاتمـــة:

بعد الانتهاء من البحث تم التوصل إلى النتائج الآتية:

- أن القصدية التي تحملها قصة قوم سبأ تتداخل مع القصدية العامة للسورة، والتي تتمثل في توحيد الله عز وجل، والتصديق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم، والإيمان بيوم القيامة.
- تركزت القصدية في القصة على تذكير كفار مكة بمصير الكافرين من الأمم السابقة، ولا سيما قوم سبأ، وتهديدهم بأنه سيحل بهم العذاب إذا استمروا على كفرهم وعنادهم، كما حل بسابقيهم.
- كما تمثلت القصدية في القصة في أن العذاب قد نزل بمن كان ذنبه أصغر من ذنوب كفار مكة، فإذا كان قوم سبأ قد استحقوا العذاب بسبب كفرهم بنعمة الله، فكيف بمن يكفر بالله ونبيه واليوم الآخر؟!
- اتكأت القصة في تحقيق قصديتها على اللغة بوصفها الوعاء الذي ينقل مقاصد الخطاب إلى المتلقين، وكان أبرز أدواتها: الاستثناء، والتكرار، والتوكيد، حيث كانت هذه الأدوات سمة بارزة في تشكيل النص.
- من الوسائل البلاغية التي استعملها القرآن الكريم من أجل تحقيق القصدية في القصة: الاستفهام الذي خرج عن غرضه الحقيقي إلى النفي، وكذلك التلميح، من خلال ربطهما عاقبة كفار مكة بعاقبة قوم سبأ، ومصيرهم بمصيرهم.
- ارتبطت كثرة المؤكدات في القصة بحجم إنكار كفار مكة للبعث والنشور، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه، وجحودهم بما حل بالأمم الماضية من عذاب نتيجة كفرهم.

المصادر والمراجع:

- أثر أسلوب الاستثناء في تحقيق مقاصد سورة سبأ: دراسة نحوية دلالية، عامر فائل محمد بلحاف، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد١٦، ٢٠١٦.
- أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق، د.ت، ١٩٩٢.
- إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤: ١٨٤.
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، د.ت.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ .
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، ١٤٢٣هـ.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، ١٩٨٤.
- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠.
- الخطاب والسلطة، فان دايك، ترجمة: غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٤.
- سورة سبأ دراسة نحوية دلالية، فاطمة عطية شبانة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، فلسطين، ٢٠١٥.
- العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.
- القصدية في أخبار خلفاء ووزراء العصر العباسي – دراسة تداولية، بدرية بنت محمد الجعيد، ود. حسين بن محمد القرني، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، اليمن، مج٥، ع٢، ٢٠٢٣.

- القصدية في الدرس البلاغي للنظم القرآني، يوسف بن عبدالله العليوي، بحث منشور في مجلة العلوم العربية، العدد التاسع والثلاثون، ١٤٣٧هـ.
- القصدية في سورة التكاثر، حكيم موحان الموسوي، بحث منشور في مجلة آداب ذي قار، العراق، محور الدراسات العربية، العدد٢١، القسم الثاني، ٢٠١٧.
- القصدية ودورها في تحقيق التماسك النصي في سورة الضحى، عبد الرحمن ربيع سيد محمد، بحث منشور في مجلة فيلولوجي، العدد ٧٨، ٢٠٢٢.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨.
- مبدأ القصدية التداولي في خطاب آيات التوحيد في القرآن المجيد، سارة كاظم عبد الرضا، بحث منشور في مجلة فصل الخطاب، الجزائر، المجلد السابع، العدد٢٥، ٢٠١٩.
- مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.
- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥.
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، إبراهيم الشاطبي، تحقيق: عياد بن عيد الثبيتي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٧.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، د.ط، ١٩٧٩.
- المقصدية التداولية في سورة الزمر، شهيدا خضر كريم، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الإسلامية، ملحق العدد ٥٨، ٢٠١٩.

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩.
- النص والخطاب والإجراء، روبوت دي بوجراند، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن النيسابوري، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٤.